بقلم: عبدالرحمن سعد
نائب رئيس التحرير بجريدة الأهرام - كاتب وباحث متخصص

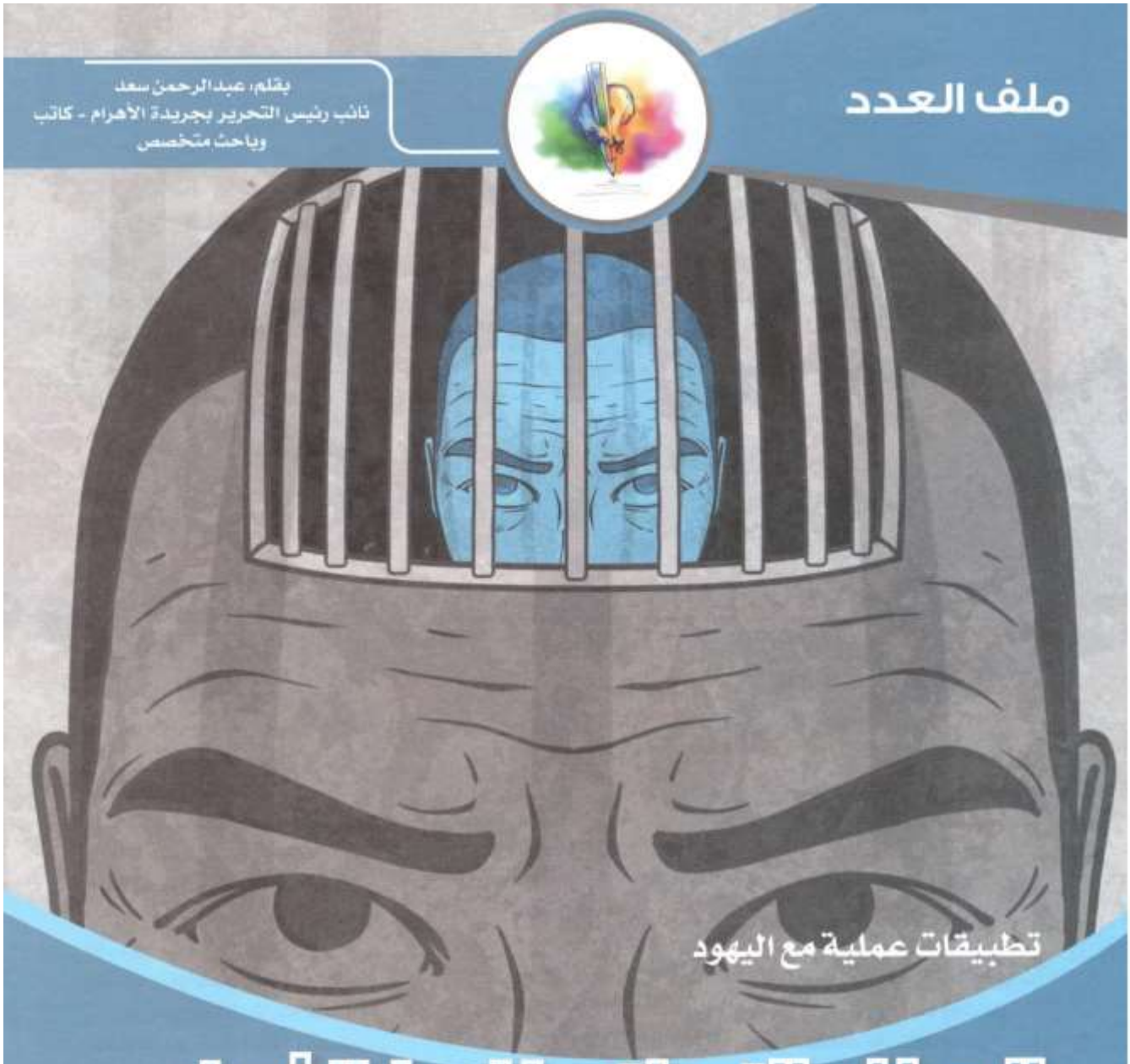

تطبيقات عملية مع اليهود

إنصاف الإسلام للمخالفين..

كثيرة هي الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والقواعد الفقهية، والمأثورات السلفية، التي تؤكد الحق الإسلامي للمخالف؛ فكرا ومعتقدا، في التعبير عن رأيه بكل حرية، وإنصافه إن كان الحق معه.. لكن ما الضمانات التي قدمها الإسلام فعليا كي يتمتع المخالفون بهذا الحق؟ وهل هناك تطبيقات عملية حقيقية شهدها المجتمع الإسلامي تؤكد ذلك؟

من الإنصاف القول - ابتداء - إنه كانت هناك فترات استثنائية في تاريخ المسلمين لم يلتزموا فيها بخلق العدل والقسط مع المخالف، وبالتبعية فيما بينهم، مما أورثهم آثارا مدمرة من التخلف الحضاري، والعداوة الداخلية، وتسلط الأعداء!

ما ذلك إلا لأن المسلمين في تلك الفترات الاستثنائية، نبذوا وراءهم تعاليم دينهم، التي تحثهم على التحلي بروح الإنصاف، وإقامة العدل، حتى لو كان ذلك مع «أشد الناس عداوة لهم»، وفي طليعتهم اليهود.

مصداق ذلك نطالعه في السطور

خمسة مواقف من القرآن والسنة وعمل الصحابة، تؤكد القسط الإسلامي معهم رغم عداوتهم الشديدة

التالية عبر خمسة تطبيقات عملية، من واقع تعاليم القرآن، وأحاديث الرسول، وعمل الصحابة، تظهر مدى العدل والإنصاف، في التعامل الإسلامي، مع هؤلاء القوم، على وجه الخصوص.

البداية من آية تمثل الركن الأعظم لحرية الرأي والاعتقاد في الإسلام، هي قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦)، أي: «لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه» (تفسير ابن كثير).

والسبب المباشر لنزولها يتعلق باليهود: فعن ابن عباس، في الحديث الصحيح، قال: «كانت المرأة تكون مقلاة (لا يعيش لها ولد)، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا (أي: لا ندعهم يعتنقون اليهودية)، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾».

آية أخرى تنهى المسلمين عن أن يحملهم بغضهم لقوم على ألا يعدلوا معهم، هي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ (المائدة:٨).

يدافع القرآن هنا أيضا عن اليهود، برغم تآمرهم لقتل النبي، فقد ورد في أسباب نزول الآية أنه ﷺ «ذهب إلى يهود، يستعينهم في دية، فهموا أن يقتلوه، فنزلت» (الطبري، والسيوطي). والمعنى: «لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوه في كل أحد، صديقا كان أو عدوا؛ إذ عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه» (تفسير ابن كثير).

والأمر هكذا، كان للمقسطين، مع مخالفيهم، في أحكامهم وولاياتهم، أعظم مكانة عند الله، فهم المقربون إليه، المرتفعون لديه.

روى مسلم في صحيحه، عن عبدالله ابن عمرو، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم، وما ولوا».

وفي الحديث التالي يقدم الرسول ﷺ قدوة عملية في اتباع الحق، حتى لو جاء على لسان مخالف.. يهودي.

عن قتيلة بنت صيفي الجهنية، رضي الله عنها: «أن يهوديا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون (أي: تتخذون أندادا)، وإنكم تشركون (بالتسوية بين مشيئة الخالق والرسول) تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة (تقسمون بها)، فأمرهم النبي ﷺ (أصحابه) إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولون: ما شاء الله ثم شئت» (صحيح النسائي، للألباني).

لم يمنع الرسول ﷺ كون المتحدث يهوديا أن ينهى أصحابه عما يقولون، ما دام قوله يوافق الحق، علما بأن الأمر يتصل بالعقيدة، وقد وردت كراهة النبي ﷺ للفعل المنتقد.

ففي الحديث الصحيح، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله، وشئت، قال: «جعلت لله ندا؟ ما شاء الله وحده».

والأمر هكذا، سار الصحابة والتابعون، رضي الله عنهم، على هذا المنهج القرآني النبوي الكريم في التعامل مع المخالف، فضربوا أروع الأمثلة على الالتزام بالقسط والإنصاف معه. ومن ذلك قصة عمر بن الخطاب، مع الذمي اليهودي.

قال أبو يوسف، صاحب كتاب «الخراج»: «حدثني عمر بن نافع، عن أبي بكر، قال: مر عمر، رضي الله عنه، بباب قوم، وعليه سائل يسأل، وكان شيخا ضرير البصر، فضرب عمر عضده، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة، والسن. فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، وأعطاه مما وجده، ثم أرسل به إلى خازن بيت المال، وقال له: انظر هذا وضرباءه فضع عنهم الجزية. فوالله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم».

وهذا يهودي أيضا جاء إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه متحديا له: «ما نفضتم أيديكم من تراب نبيكم؛ حتى قلتم: منا أمير، ومنكم أمير! فرد عليه علي: ما جفت أقدامكم من فلق البحر حتى قلتم اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. فانقطع اليهودي، ولم يجد جوابا» (عيون المناظرات، لأبي علي السكوني، تحقيق: سعد غراب، تونس، ١٩٧٦م).

هذه المعاملة النبيلة مع المخالف، بالقبول منه، وعدم رد الحق؛ إن كان معه؛ ظلت ديدن كل مسلم، وجسدها الإمام الشافعي في قوله: «ما ناظرت أحدا قط على الغلبة، وإنما لكي يتبين الحق» (سير أعلام النبلاء).